المحاضرة الثانية عشر: العمران والديموغرافية في المدينة الغربية في العصر الوسيط (نموذج مدن المغرب الأوسط –مدينة تلمسان–)

1 –التاريخ السياسي لمدينة تلمسان:

أهل الموقع الجغرافي الاستراتيجي مدينة تلمسان أن تكون مطمعا للدويلات الإسلامية بالمغرب الإسلامي، ومقصدا للمجموعات البشرية، والقبائل البربرية و العربية، حيث دخلها أبو المهاجر دينار (55– 62هـ/675–682م) على زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان بعد معارك ضارية مع البيزنطيين، وبالقرب من مدينة تلمسان ولد الحلف الأخوي الذي جمع كلا من أبي المهاجر دينار وكسيلة بن لمزم الأوربي، ولتخليد هذه الذكرى، شرع أعوان أبي المهاجر في حفر الينابيع كثيرة عرفت في المصادر التاريخية بعيون أبي المهاجر، ثم تقلبت بين أيدي الفاتحين المسلمين من ولاية عقبة بن نافع الثانية (62-64هـ/ 682م- 684م) إلى غاية عهد الولاة من الأمويين ابتداء من سنة (95هـ/ 714م)، ثم تأثرت بالتيارات المذهبية التي ظهرت بالمغرب الإسلامي بدءا عصر الولاة الأمويين والعباسيين، وكان النشاط الصفري أول نحلة برزت بالعداء للخلافة الأموية منذ سنة (122هـ/740م)، وتسببوا في إنهاك قوات الولاية بإفريقية، وكذلك قوات الخلافة الإسلامية، ولم يستطع الولاة الأمويين الثأر لهزائمهم إلا عندما ولّي الأمر حنظلة بن صفوان الكلبي حيث انتصر في معركتين حاسمتين بجوار القيروان سمّيت احدهما معركة القرن، والثانية معركة الأصنام سنة (126هـ/ 744م)، وقتل زعماء الصفرية عبد الواحد الهواري، وعكاشة ابن أيوب الفزازي، وفر أبو قرة اليفرني الصفري إلى مدينة تلمسان واتخذها عاصمة لإمارته بعد مبايعته سنة (140هـ/757م). وفي سنة (150هـ/767م) خرج منها ودانت للمغرويين إلى غاية دخول الأدارسة إليها.

أ–في الدولة الإدريسية:

تعد الدولة الإدريسية أول إمارة إسلامية انطوت مدينة تلمسان تحت سلطتها، ففي سنة (173هـ/789م) خرج إدريس بن عبد الله برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن، ونزل بخارجها، فأتاه أميرها محمد بن خزر المغراوي فطلب الأمان، فأمنه "إدريس بن عبد الله"، و بايعته جميع قبائل زناتة، فدخل مدينة "تلمسان" صلحا و أمن أهلها و بنا مسجدها، و كانت المدينة تعرف بأغادير وهي النواة الأولى لمدينة تلمسان الإسلامية، لسوء حظنا لم يبق من أثار المدينة الإدريسية إلا أطلال المسجد (المئذنة تعود للفترة الزيانية)، و يقول "ابن أبي زرع": " ....وصنع فيه منبرا و كتب عليه (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك في شهر صفر سنة أربع و سبعين و مئة).

وفي سنة (299هـ / 911م) سار "إدريس بن إدريس بن عبد الله" إلى مدينة "تلمسان"، فنظر في أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها، وأقام بها مدة ثلاث سنين.

ب –في الدولة المرابطية والموحدية:

بعد نهاية الدور الأول للدولة الإدريسية، وخروجهم من فاس، وانتقال بقاياهم إلى قلعة حجر النسر في شعاب جبال الريف استبد بالأمر "موسى بن أبي العافية" مؤيدا في ذلك الفاطميين ، و لكن الأمر لم يستقر له طويلا، لأنه لم يستطع إقامة النظام، فلم تلبث وحدة القبائل التي أقامت دولة "الأدارسة" أن انفرط عقدها، فعاد المغرب الأقصى و المغرب الأوسط إلى الفوضى، و سيطرت عليه القبائل الزناتية ، معظمهم من مغراوة وبني يفرن، وأخذت زندقة برغواطة تنشط من جديد، وتسلم مقاليد المغرب الإسلامي الزيرين من طرف الفاطميين، ونشب صراع سياسي و عسكري كبير بالمغرب الإسلامي، أثر سلبا على التطور الفكري و العمراني للمغرب الأوسط عموما دام حوالي سبعين سنة إلى غاية خروج المرابطين من رباطهم في جنوب المغرب الأقصى، وزحفوا نحو الشمال.

لما دانت إمارة المرابطيين ليوسف بن تاشفين عمل على استكمال الفتح فكان له ذلك، ففي سنة (460 هـ / 1063 م) فتح بلاد غمارة، و في سنة (462هـ/ 1070م) نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة، وقتل بها زهاء ثلاثة الاف من مغراوة، وبني يفرن ومكناسة، ومن نجا منهم من القتل فر إلى تلمسان، وأمر بهدم

الأسوار التي كانت فاصلة بين عدوة القرويين و الأندلسيين، ولازال "يوسف بن تاشفين" يفتح المدن، ويدوخ القبائل إلى غاية سنة (473هـ/1081م- 1082م)، فزحف على الريف، وافتتح مليلة، وخرب مدينة نكور، ثم زحف على بلاد المغرب الأوسط في نفس السنة (473 هـ/ 1082م - 1083م)، ففتح مدينة وجدة، وبلاد بني يزناسن، ثم مدينة تلمسان، واستلحم من كان بها من مغراوة، و قتل العباس بن بختي أمير تلمسان، وأنزل محمد بن تنعمر بها في عساكر المرابطين، واختط بها مدينة تكرارت بمكان محلته ثم افتتح وهران، وجبل الونشريس، وواد شلف، ومدينة تنس، ووصل إلى غاية مدينة الجزائر من بني مزغنة، ورجع إلى مراكش سنة (475هـ/ 1085م)، ودان المغرب الأوسط للمرابطيين.

بقيت بمدينة تلمسان مرابطية إلى غاية استيلاء الحمادين عليها وذلك لما أجاز الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس الجواز الرابع سنة (497هـ/1107م)، وهذا بسبب خلاف وقع بين المنصور بن ناصر الحمادي وتاشفين بن تنعمر أمير تلمسان فصالحه يوسف بن تاشفين، واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة (497هـ/1107م).

في سنة (500هـ/1110م) توفي يوسف بن تاشفين (400-500هـ/1010-1110م)، فخلفه ابنه علي بن يوسف بن تاشفين (477-537هـ/ 1085-1143م)، ولزم المغرب الأوسط طاعة المرابطيين، وكان حد الدولة المرابطية شرقا مدينة الجزائر، إلى غاية وفاة الأمير علي بن يوسف سنة (537هـ/1147م)، وخلفه ابنه تاشفين بن علي، واستلحم أمر الموحديين.

ولما علم عبد المؤمن بن علي (524هـ-1130م/558هـ-1163م) بوفاة علي بن يوسف بن تاشفين وخروج بعض القبائل عن قبيلة لمتونة حاصر مدينة سبتة، ودخل إلى تلمسان، ثم فتح مدينة فاس بعد تسعة أشهر من الحصار سنة (540هـ/1150م) ، ثم غزا عبد المؤمن بن علي الكومي غزوته الكبرى على بلاد المغرب، فصار يتبع جيوش المرابطين إلى أن هلك تاشفين بن علي بوهران سنة (541هـ/ 1151م) ثم فتح مدينة مراكش سنة (541هـ/1151م)، وبالتالي أصبح عبد المؤمن بن علي سيد مراكش والمغرب كله، ثم جهز عبد المؤمن بن علي جيشه لفتح الأندلس ففتحها، وكان ذلك سنة (555هـ/1168م)، وأمر بتحصين جبل الفتح ثم دان له المغرب الأوسط، وإفريقية، و المهدية سنة (555هـ/ 1168م).

جـ –في الفترة الزيانية– الحفصية– المرينية:

لما أذن الله بسقوط الدولة الموحدية بدأ الشقاق و الطمع يلج إلى قلوب القبائل العربية، والبربرية على السواء في الخروج عن عصا الطاعة، لعلمهم أنّ الدولة الموحدية قد تصدع كيانها، وانكسر جيشها بعد معركة حصن العقاب بالأندلس سنة (609 هـ/ 1212م). بدأت بوادر الاستقلال عن السلطة المركزية بمراكش تلوح ونشأت أول ما نشأت الدولة الحفصية بتونس، واستقلت عن الدولة الموحدية سنة (627 هـ / 1230م)، ثم تلتها الدولة الزيانية، وكان من أكبر قادتها و مؤسسي الدولة "يغمراسن بن زيان" (633هـ- 1236م/ 681هـ- 1283م حيث تولى أمر بني عبد الواد بعد موت أخيه أبي عزة زكدان بن زيان سنة (633هـ/1236م)، فاستولى على تلمسان وجعل منها قاعدة لدولته ووسع رقعتها على حساب دولة الموحدين الضعيفة، إلا أنّ يغمراسن بقي يدعوا للخليفة بمراكش، ولكن الموحدين أرادوا نزع مدينة تلمسان منه، وخلعه منها فحاصروها، وخلال ذلك طلب يغمراسن الأمير أبا زكريا الحفصي (627هـ- 1230م/ 647هـ- 1249م) راغبا في القيام بدعوته، فدانت الدولة الزيانية الفتية إلى الحكم الحفصي، ولكن روح الانفصال بقيت قائمة، وتجسدت بعد مقتل السعيد علي بن إدريس الموحدي (640هـ- 1242م/ 646هـ-1248م) بعد محاصرته ليغمراسن بن زيان بقلعة تامزردكت وذلك سنة (646هـ/ 1248م).

وقامت بالمغرب الأقصى الدولة المرينية، ونتيجة لهذا التمخض الجديد الذي عرفه المغرب الإسلامي كبر الصراع على الأماكن الاستراتيجية للمغرب الإسلامي خاصة موانئ المغرب الأوسط بل تعدى ذلك ليشمل الصراع على مدينة "تلمسان" التي كانت نقطة انتقال السلع والذهب من الصحراء، وبلاد السودان إلى الشواطئ الأندلسية والجزر المتوسطية.

وعلى الرغم من هذا الصراع لم تتغير الخريطة الجيوسياسية للمنطقة جذريا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول، لأن الظروف العامة لم تكن مواتية، أو بسبب توازن القوى، إلا أن هذا الصراع خلف حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها وأهدر طاقات كبيرة، في وقت كان العالم الأوروبي يشهد تحولات سوف تكون لها انعكاسات خطيرة على مستوى توازن القوى النصرانية والإسلامية، وكذا بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية.

لما استقل أبو زكريا الحفصي بأمر إفريقية بايعته قبيلة بني توجين، فحين ولى يغمراسن رأسه إلى مراكش وتقلد طاعة بني عبد المؤمن بن علي، وكان الرشيد الموحدي (630هـ- 1232م/640هـ-1242م) قد ضاعف له البر، و ذلك منذ سنة (637 هـ/ 1239م- 1240م) ، خاصة لما تولى يغمراسن الحرب ضد بني مرين الطامعين في ملك المغرب الأقصى ، ولكن هذا الولاء انفض عند أول حملة سيرها السلطان الحفصي أبو زكريا إلى تلمسان، حيث فرض سلطانه عليها، وحوصرت المدينة عدة أيام قبل أن تقتحم أسوارها، ويعمل فيها وفي أهلها القتل والنهب والتخريب، وضياع أملاك، وذلك في أواخر سنة (639هـ/1241م)، وأوائل سنة (640هـ/1242م)، وفر يغمراسن منها، وجهز السرايا لمهاجمة معسكر الحفصيين، فعلم أبو زكريا أنه لا طاقة له في محاربته، فراجعه بالإسعاف، واتصال اليد على صاحب مراكش، فخطب يغمراسن أبا زكريا الحفصي راغبا في القيام بدعوته، فقبلها أبو زكريا، وعهد إليه ولاية تلمسان وأعمالها، ولكن أبا زكريا أراد أن يوقف جماح يغمراسن في التوسع بالمغرب الأوسط فجعل بين ذلك كل من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي وعلي بن منصور المليكشي على قومهم، وأوطانهم، وعهد إليهم بذلك، وأذن لهم باتخاذ الألة، والمراسيم السلطانية على سنن يغمراسن نظيرهم.

ويبدو أن هذا الصلح ظل قائما والدعوة لبني حفص على المنابر محترمة، إلى أن عطلها عثمان بن يغمراسن (681هـ – 703هـ/ 1282-1303م) أواخر القرن السابع الهجري مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين من جديد.

وظل التوتر يطبع العلاقات الزيانية والحفصية، إما بسبب النزاع على بعض الأقاليم والمدن كما هو الحال في الصراع الذي دار بينهما سنة (732هـ/ 1331م) للسيطرة على بجاية، حيث وجدت السلطة الحفصية دعما من السلطة المرينية بقيادة أبي الحسن (731هـ – 752 هـ / 1330م-1351م)، أو لفرض الشرعية كما حدث مع الحملات العسكرية على "تلمسان" لاحقا خلال القرن التاسع الهجري.

لم تكن علاقات حسن الجوار بين الزيانيين، والمرينيين هي الصفة السائدة والدائمة، بل كانت حروب، وتطاحن، وحصار، ومن خلال ذلك تنقلب مغراوة وبني توجين على السلطة الزيانية، لما ينالهم من التنكيل من طرف "بني عبد الواد" في كل مرة عند حلول السلم مع بني مرين.

أثناء الحصار الذي ضربه عثمان بن يغمراسن على قلعة بني سلامة من بلاد توجين سنة (698هـ/ 1298م-1299م) زحف يوسف بن يعقوب (685هـ-706هـ/ 1286م-1307م) بالجيش المريني على تلمسان، ولولا تدارك عثمان بن يغمراسن الأمر لفتحها المرينيين، فدخلها عثمان بن يغمراسن وتحصن بها، ونزل يوسف بن يعقوب بجيشه على الهضبة المطلة على تلمسان، واختط مدينة المنصورة، وحاصر تلمسان سنين وسرح عساكره لافتتاح المغرب الأوسط، وكان له ذلك.

خلال حصار تلمسان من طرف المرينيين توفي عثمان بن يغمراسن (681هـ-1283م/ 703هـ-1303م)، فخلفه أبو زيان محمد (703 هـ-1303م /707 هـ -1308م)، ودام الحصار ثماني سنين وثلاثة أشهر، نال من أهل تلمسان، من الجهد، والجوع مالم ينل أمة من الأمم، وفي نفس الوقت اتسعت خطط المنصورة، ودام الحصار حتى قتل يوسف بن يعقوب من طرف أحد الخصيان أسخطته بعض النزعات الملوكية، وذهب الله بجحيم الحصار على الزيانيين.

بعد انتهاء المحنة نهض أبو زيان مستردا ما أخذه منه المرينيون من أعمال، ففي سنة (706هـ/ 1307م-1308م) خرج من تلمسان مع أخيه أبي حمو موسى الأول فقصد بلاد مغراوة، وشرد من كان هناك منهم في طاعة بني مرين، وأخذ الثغور من أيدي عمالهم، ثم عقد عليها لمسامح مولاه، ورجع عنها.

في فترة حكم أبي زيان انقطعت الدعوة للحفصيين بتلمسان، واستمرت على ذلك إلى غاية وفاة أبي زيان، ولما خلفه أخوه أبو حمو موسى الأول(707هـ-1308م/718هـ-1318م)، وكان شديد البأس اتبع سيرة أخيه أبي زيان في قطع الدعوة للحفصيين، وعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته.

ولما نشب الخلاف بين السلطان أبي حمو موسى الأول مع أمير الدولة المرينية أبي سعيد عثمان بن يعقوب (708هـ- 1308م/710هـ- 1310م) بسبب تدخل أبي حمو موسى الأول في خلاف حدث بين السلطان المريني وأخوه يعيش بن يعقوب زحف أبو سعيد على تلمسان وحاصرها، وغلب على ضواحيها. ولما انكشفت

المحنة على تلمسان نهض أبو حمو موسى الأول واستعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان وزحف على بلاد مغراوة، وكان ذلك سنة (707هـ / 1307م)، لكن أبا تاشفين سولت له نفسه فدخل في صراع مرير مع أبيه انتهى سنة (718هـ / 1318م) بقتله.

كان أبو تاشفين (718هـ- 1318م/ 737هـ -1337م) مولع بالبناء وذكر ذلك ابن خلدون بقوله: "...وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض و البساتين، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأربى عليه، فاحتفلت القصور و المصانع في الحسن ما شاءت..."، لكن هذا الأمن و الاستقرار الذي عرفته تلمسان ودام ما يقارب عشرون سنة انتهى بالحصار الذي ضربه المرينيون على تلمسان بقيادة أبي الحسن المريني، ومقتلهم لسلطان الدولة الزيانية أبي تاشفين، وملكت بني مرين تلمسان، وبلاد توجين، ومغراوة، وذلك سنة (737 هـ/1337م)، وانقطعت دولة بني عبد الواد إلى غاية إحيائها من طرف أبي سعيد عثمان سنة (749هـ/ 1348م).

خلال الحصار الذي فرضه أبو الحسن على تلمسان، ومسيرته إلى فتح إفريقية، وما كان له فيها من مشاكل وصعاب أثناء عودته إلى المغرب اجتمعت مغراوة وانفصلت عن الدولة المرينية إلى حين. ولما استرد أبو سعيد عثمان ملك (749هـ- 1348م/ 753هـ- 1352م) تلمسان جعل قيادة الجيش لأخيه أبي ثابت، فلما زحف الناصر الحفصي من إفريقية على المغرب الأوسط قعدت مغراوة مع أميرها على بن راشد عن مناصرة بني عبد الواد رغم الصلح، والموادعة، والتظاهر على عدوهم، فأسرها أبي ثابت في نفسه ولما هزم جيش الناصر، وقطع الطريق على السلطان المريني أبي الحسن وجه أبو سعيد عثمان جيوشه نحو مغراوة، فخرج من تلمسان سنة (752هـ/ 1351م)، وزحف على المغرب الأوسط ودخل مدينة الجزائر، وعقد عليها لسعيد بن موسى بن علي الكردي، وذلك في منتصف شهر شعبان من سنة (752هـ/1351م).

أثناء الحصار الذي فرضه أبو ثابت على المغراويين بجبل الظهرة بعث علي بن راشد إلى سلطان بني مرين أبي عنان فارس، وطلب منه الشفاعة والوساطة عند أبي ثابت، ولكن هذا الأخير رد الشفاعة ولم يقبلها، ولما بلغ أبو عنان نبأ مقتل علي بن راشد، جمع لغزو تلمسان، والمغرب الأوسط وكان ذلك سنة (753هـ/ 1352م)، وانهزم جيش "بني عبد الواد" عند سهل "وجدة"، و كان ذلك في ربيع الثاني من سنة (753هـ/ 1352م)،

وقتل أبي السعيد عثمان، وفر أبو ثابت إلى بجاية، ودخل أبو عنان إلى تلمسان، وطلب من صاحب بجاية أبي عبد الله حفيد السلطان أبي بكر الحفصي القبض على أبي ثابت، فكان ذلك وسلم لسلطان بني مرين، وقتل بصحراء المدية سنة (753هـ/ 1352م) وغلب بنو مرين على المغرب، وانقضى ملك آل زيان من جديد إلى غاية بعثه من طرف أبي حمو موسى الثاني.

ولما تزعم أبو حمو موسى الثاني أمر آل زيان (760هـ- 1358م/ 791هـ/ 1388م) استرجع تلمسان، و المغرب الأوسط من بني مرين، ولكن الصراع تجدد مرة أخرى بين أبي حمو موسى الثاني، والسلطان المريني الجديد أبي سالم إبراهيم (760هـ- 1359م/762هـ-1361م)، بسبب طلب هذا الأخير من أبي حمو موسى الثاني الكف عن المرينيين المتواجدين بالجهة الشرقية، ولكن أبا حمو موسى الثاني رفض ذلك فجهز أبو سالم الجيش المريني وزحف به على أعمال تلمسان، وحاصرها، ودخلها سنة (761هـ / 1360م)، لكن أبا حمو موسى الثاني خالفه إلى المغرب فخشي أبو سالم على ملكه، فقفل راجعا إلى فاس بعد أن عين أبا زيان القبي على تلمسان.

خرج أبو سالم إبراهيم من تلمسان إلى فاس فاستغل أبو حمو موسى الثاني هذا الوضع وزحف على تلمسان، ففر من أمامه أبو زيان القبي، واستطاع السيطرة على كل ممتلكات بني مرين، وذلك يوم 8 رمضان سنة (761هـ/ 23 جويلية 1360 م).

وفي سنة (768هـ / 1366 م) ثار من جديد أبو زيان القبي بدعم من المرينيين حيث تمكن من مليانة والبطحاء والمدية، مما جعل أبو حمو موسى الثاني يزحف من جديد على هذه المدن، فأطاعته الحواضر كتنس، ووهران، ومستغانم ماعدا الجزائر، وكان ذلك في محرم (769 هـ/ 1367م).

احتدم الصراع بين أبي حمو موسى الثاني، وأبي زيان القبي إلى غاية زحف السلطان عبد العزيز" على تلمسان، ولقيه أبو حمو موسى الثاني عند جبل بني وردنيد فاقتتلوا قتالا شديدا توفي عندها أبي حمو موسى الثان"، وكان ذلك سنة (791 هـ / 1389 م)، وملكت بنو مرين المغرب الأوسط، واستلم أبو تاشفين عبد الرحمن الحكم (791هـ- 1389م/ 795هـ- 1393م) بمساعدة الجيوش المرينية ضد أبيه أبي حمو موسى الثاني، وفي زمانه بقي المغرب الأوسط تحت الحماية المرينية، وعند وفاته قام القائم بدولته بتعين صبيا من أبنائه وقام بكفالته، وكان

يوسف بن أبي حمو موسى الثاني (795هـ- 1393م/ 796هـ – 1394م) واليا على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الأمر سارع بالسير إلى تلمسان فدخلها، وقتل الصبي وأحمد بن العز، ولما سمع سلطان المغرب أبي العباس بالأمر تجهز لفتح المغرب الأوسط من جديد وبعث من تازى أبنه أبي فارس إلى تلمسان فملكها، وتقدم صالح بن حمو وزير السلطان أبي العباس المريني إلى المغرب الأوسط ووصل إلى غاية حدود مدينة بجاية، وانقطعت دولة بني عبد الواد مرة أخرى.

لقد أصبحت تلمسان ومن خلالها المغرب الأوسط بعد هذه السنة تتأرجح بين أمراء من آل زيان بدعم من المرينيين تارة، أو من الحفصيين تارة أخرى، وامتدت هذه الفترة إلى غاية (870 هـ/ 1465م)، ومن أمراء بني زيان المؤيدين من طرف الحفصيين نجد ابن الحمرة محمد بن أبي تاشفين (827هـ- 1423م/ 833هـ- 1427م) الذي استطاع حشد مؤيديه بجبال الونشريس، وبرشك، وتنس، ولكنه خلع الدعوة الحفصية بعد توطيده لحكمه، لكن الحفصيين ساندوا عليه أبي مالك عبد الواحد بن السلطان أبي حمو موسى الثاني، وذلك بعد الحصار الذي فرضه أبو فارس الحفصي (796هـ/1394م/837هـ-1434م) على تلمسان، ولكن ابن الحمرة لم يستسلم للحفصيين بل حشد القبائل القاطنة بجبال تنس، وبرشك، وسهل شلف، وزحف بهم على تلمسان ففتحها في ذي الحجة سنة (833هـ/ 1440م)، و تمكن من قتل عمه أبي مالك، ودفنه بالقصر القديم بعد 48 يوما من تملكه لتلمسان.

فزحف السلطان الحفصي أبو فارس على تلمسان فأسره، ونصب مكانه عمه أبا العباس أحمد العاقل ابن السلطان أبي حمو موسى الثاني (834هـ-1430م/866هـ-1461م)، فخرج عليه المستعين بالله أبي زيان محمد بن أبي ثابت، لكنه لم يستطع دخول تلمسان فاكتفى بتأسيس إمارة عاصمتها الجزائر وتظم مدينة تنس، وسهل متيجة، والمدية، وكان ذلك سنة (842هـ/1439م)، ولكن أهل الجزائر ثاروا عليه وتمكنوا من قتله سنة (843هـ/ 1440م).

وفي أواخر سنة (870هـ/1466م) زحف المتوكل على الله ابن أبي زيان من مدينة تنس، وضم إليه بقيت بلاد مغراوة، واستطاع دخول مدينة تلمسان، وعزل أبا العباس محمد العاقل، وخلع طاعته للحفصيين ولكنهم

استطاعوا محاصرة تلمسان بقيادة السلطان أبي عمر عثمان، وتقرب منه الأمير الزياني المتوكل على الله، وزوج ابنته للأمير الحفصي أبي زكريا، وأعلنت أغلبية مدن المغرب الأوسط بيعتها للحفصيين.

استمرت الفتن تجتاح المملكة الزيانية لمدة طويلة، ففي عهد أبي ثابت الثالث محمد (890هـ - 1485م/ 902هـ-1497م) بدأت المدن و القبائل تستقل عن السلطة المركزية بتلمسان، كمدينة الجزائر، والمدية، وتنس، ودلس، كما أن كثيرا من القبائل العربية خلعت طاعة السلطان الزياني، وأصبحت تنضمّ إلى أعدائه كلما هجموا على أراضيه، وبعد وفاته زادت الأمور سوءا واشتدّ خطر النصارى، واحتلت المدن الساحلية، أما سلطان الزيانيين محمد الخامس بن محمد الثابتي، فإنه رأى أن يفاوض الأسبان ويصالحهم، فوفد على ملك قشتالة سنة (914هـ/1509م)، و عقد معه الصلح والتزم بالتبعية له وبدفع ضريبة سنوية.

وفي سنة (920هـ / 1514م) أصبح الأتراك العثمانيون يشكلون قوة عسكرية في الحوض الغربي للمتوسط بقيادة الإخوة بربروس. وفي سنة (922هـ/1516م) توفي محمد الخامس، فخلفه أبو حمو الثالث، وارتكزت سياسته على مسالمة الأسبان ومصالحتهم، هذا ما جعل سكان مدينة تلمسان يثورون عليه ويمكنوا عروج باربروس من المدينة فاستنجد أبو حمو الثالث بالأسبان، وحاصروا عروج بتلمسان، وهزموه وقتل سنة (924هـ/ 1518م).

وعندما توفي أبو حمو الثالث سنة (934هـ/ 1528م)، كان ظل الزيانيين قد تقلصّ وأصبح أمراؤهم يرغبون في مصالحة أعدائهم النصارى، ويرضون بالتبعية لهم ودفع الضريبة تفاديا لشرهم. وفي عهد "أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي قوي نفوذ الأتراك، فاضطّر إلى إجراء اتفاق سري معهم تحت ضغط سكان مدينة تلمسان وعلمائها، وصادف ذلك انشغال الأسبان بأوضاعهم الداخلية، فسلم من شرهم إلى أن توفي سنة (947هـ/ 1540م).

وكان أبو محمد عبد الله قد ترك ولدين أبو عبد الله محمد وأبو زيان أحمد، فثار هذا الأخير على أخيه بتشجيع من الأتراك و العلماء تلمسان فخلعه، فاستجار أبو عبد الله محمد بالإسبان، فأمده الملك كارلس الخامس بجيش وأرسله إلى تلمسان، لكن ذلك الجيش انهزم قرب عين تيموشنت سنة (950هـ/ 1543م)، فعمل الإسبان على حشد الجيوش على لأخذ بالثأر لقتلاهم، فأغاروا على تلمسان، واحتلوها وقتلوا معظم أهلها، وأعادوا أبا عبد الله محمد على عرش تلمسان، ثم جمع أبو زيان كثيرا من أنصاره وقدم بهم تلمسان، ولكن أبا عبد الله محمد خرج

عليه وهزمه، و لما عاد إلى "تلمسان" أغلق أهلها الأبواب دونه و طردوه، و استقدموا أبا زيان وأعادوه على عرش تلمسان، وبقي حليفا للأتراك إلى غاية وفاته سنة (957هـ/ 1550م) فخلفه أخوه الحسن.

وكانت الدولة الزيانية آنذاك عبارة عن منطقة صغيرة تشمل تلمسان والمدن المجاورة لها، وكانت السواحل الغربية تحت سلطة الإسبان، فكان ذلك يحرمها من أهم مواردها التي كانت تأتيها من تجارة الموانئ، وأصبحت مطمعا للسلطان السعدي محمد بن محمد بن أحمد الشريف ملك مراكش، ففي سنة (957هـ/1550م) جهز جيشا بقيادة ابنه حران وأرسله لفتح تلمسان ونزعها من أيدي الأتراك وذلك بطلب من سكان مدينة تلمسان فبسط نفوذه عليها سنة (958هـ/1551م)، ثم واصل السير نحو مدينة مستغانم بعد انسحاب الأتراك منها فدخلها، وعين عليها أحد الأمراء المغاربة وترك عليها 700 فارس وبعض رماة البنادق، ثم قفل راجعا إلى مدينة فاس، لكن الأتراك أعادوا الكرة في عهد حاكم الجزائر صالح رايس، وطردوا جيشه، وجعلوا حدّا لإغارته، ودخلوا إلى مدينة تلمسان، بل وصلوا الفتح نحو مدينة فاس ففر صاحبها محمد بن محمد الشريف السعدي إلى مراكش فدخلها الأتراك بقيادة حسن قورصو وأميرها المخلوع أبي حسون المريني برفقة الأمير دبدو متزينين بحلي فاغرة كل واحد بطراز بلده.

وأخيرا قرّر الأتراك خلع السلطان الحسن بن عبد الله بن محمد الثاني، آخر أمراء بني زيان سنة (962هـ/ 1554م)، وبذلك انقرضت الدولة الزيانية، وانتهى مجد تلمسان حاضرة المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة.

ومن خلال تتبعنا للمسار التاريخي لمدينة "تلمسان" خاصة في الفترة الزيانية يمكن تقسيم مراحل تطور هذه الدولة سياسيا إلى أربعة مراحل هي:

– مرحلة النشأة:

تمتد من سنة (633هـ/ 1235م) إلى (706هـ/1306م) من أشهر حكام الدولة نجد يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة ومنظم شؤونها، عمل على إخضاع القبائل العربية والبربرية، كما استطاع أن يمد نفوذه إلى غاية مدينتي مليانة وتنس من المغرب الأوسط. وبعد وفاته خلفه ابنه عثمان بن يغمراسن استمر على نفس سياسة أبيه، كما استطاع إخضاع قبائل مغراوة وتوجين.

1 –2 –التطور العمراني والنمو الديموغرافي لمدينة تلمسان:

أطلق البربر اسم أغادير على مدينة بومارية، بعد أن نجحوا في تقويض نفوذ الرومان والوندال والبيزنطيين، وأغادير تعني باللغة العربية الجدار القديم، والمدينة المحصنة ويشير المعنى الأول إلى أنها مدينة قديمة أزلية، أما المعنى الثاني أن أغادير كانت مدينة لكنها تغاير المدن المؤسسة حينئذ في ذلك الإقليم. فلا شك أنها كانت مصرا بالنسبة إليها، وكانت محصنة كأنها قلعة يحيط بها الأسوار والأبراج المنيعة.

ويؤكد أبو عبد الله محمد بن مرزوق المشهور بالحفيد من كبار علماء مدينة تلمسان (766هـ-1364م/ 842هـ-1438م) تسمية تلمسان بلد الجدار من خلال نظمه:

بلد الجــدار مـا أمــرّ نواهـــا كلف الفؤاد بحبها و هواهـــا

يا عاذلي كن عاذري في حبّها يكفيك منها ماؤها و هواها

ثم سميت مدينة تلمسان ويقول الدكتور لعرج عبد العزيز: "..تلمسان في إسلامها كانت تسمى بأجادير ". وهي كلمة بربرية تعني الصخرة، ومتمعن في موقعها يدرك أصل التسمية، فمحيطها كتل حجرية، ومنشآتها تقوم على كتلة صخرية.

ومن الملاحظ أن غالبية الجغرافيين والمؤرخين المسلمين يطلقون اسم تلمسان على هذه المدينة، وهي أيضا كلمة بربرية، مكونة كلمتين **تلم** ومعناه تجمع، **وسان** معناه اثنان، أي أنها تجمع بين التل والصحراء و هذا ما أشار إليه مجموعة من المؤرخين والجغرافيين منهم يحيي بن خلدون نقلا عن شيخه أبو عبد الله محمد الآبلي، وذهب المقري إلى هذا التعريف نقلا عما ذكره يحي بن خلدون بقوله: "...ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن كلمة مركبة من تلم و معناه تجمع، وسين ومعناه اثنان: أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي رحمه الله، وكان حافظا بلسان القوم، ويقال تلمشان، وهو أيضا مركّب من تلم ومعناه لها وشان أي لها شأن...". وفي نفس المنحى وصف ابن الخطيب مدينة تلمسان بقوله: " تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه...".

برزت مدينة تلمسان منذ الفترة المبكرة للفتح الإسلامي، إذ دخلها أبو المهاجر دينار (55-59هـ/ 675-678م)، الذي ولي أمر إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، وبه سميت عيون أبي المهاجر قريبا منها،

وأثناء فتنة الخوارج بالمغرب الإسلامي انصرف إليها أبو قرة اليفرني فارا من طبنة سنة (140هـ/757م)، حيث اتخذها عاصمة لدولته الصفرية وسمي الباب الغربي على إسمه، ويقول في ذلك البكري: " في الغرب باب أبي قرة". تعد هذه الفترة غامضة من تاريخ العمران والعمارة بتلمسان، وهذا في غياب الشواهد الأثرية، والمصادر الكتابية.

ويبدو من الوهلة الأولى أنّ الأدارسة حين دخولهم لتلمسان نزلوا بمدينة أغادير، وهي أول تجمع سكاني، وفي انعدام الشواهد المادية يمكن الافتراض أنها المدينة التي نزلها أبي قرة اليفرني، ولما خلص إليها الأدارسة في عهد إدريس بن عبد الله سنة (174هـ/789م)، وكان محمد بن خزر بن صولات أميرا عليها وعلى قبيلة زناتة مكّنه من الدخول إلى تلمسان صلحا، فاختط إدريس بن عبد الله المسجد الجامع بأغادير وصنع له منبرا وهي النواة الأولى لتطور المدينة، ومكث بها شهرا ثم قفل راجعا إلى مدينة فاس، وكانت في هذه الفترة تعرف بباب إفريقية، ويذكر ابن أبي زرع أنّ هارون الرشيد لما سمع بفتح الأدارسة لتلمسان اغتم لذلك غما شديدا وقال لوزيره: "...أنّه ولد علي بن أبي طالب.....قد قوي سلطانه وكثرت جيوشه، وعلا شأنه، واشتهر امره واسمه، وفتح مدينة تلمسان، وهي باب إفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار."، وبعد وفاة إدريس عبد الله ضعف شأن الأدارسة إلى غاية إحياء دولتهم من طرف إدريس بن إدريس بن عبد الله واجتمعت إليه القبائل البربرية، فنهض إلى تلمسان سنة (199هـ/814م)، فجدد مسجدها وأصلح منبرها وأقام بها ثلاثة سنوات ، والمسجد الجامع هذا المذكور في النصوص التاريخية هو مسجد مدينة أغادير ما بقي منه إلاّ أسوار أساساته وبقايا من حنية محرابه، واستعمل في بنائه بقايا من حجارة مهذبة تعود إلى الفترة القديمة كما تبدو عليها أثارا من الكتابة اللاتينية.

إن إنشاء مدينة أغادير يعد الفعل العمراني الأول للفترة الإسلامية المبكرة في المغرب الأوسط، ومن خلاله مدينة تلمسان، وإن لم يتبق من المدينة الإسلامية إلاّ أطلال المسجد الجامع، وبقايا من أسوار وجدران منازل وهي بقايا من حفرية منظمة التي أجريت سنة (1393هـ/1973م) إلى غاية (1400هـ/1979م)، ولكن من خلال وصف الذي قدمه الجغرافيين والمؤرخين يمكن تحديد التطور العمراني للمدينة ولو بصفة تقريبية.

كانت مدينة أغادير كبيرة إذا ما قورنت بالمدن المنشأة في تلك الفترة، إذ كانت تحتوي على سور يحدد مساحتها فتحت فيه خمسة أبواب على شاكلة المدن الإسلامية، حيث يصفها الحميري بقوله: "... ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوخة وفي المشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرة، وفيها

بقية من النصارى ولهم بها كنيسة معمورة...."، ويؤكد البكري هذا الوصف بقوله: "... وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، في الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرة، وفيها لأول آثار القديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة ...وكان الأول قد جلبوا إليها الماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال، وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار عليها الطواحين وهو نهر سطفيف و هي دار مملكة زناته وموسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الأفاق، ونزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب الذي بنا جراوة وكان أميرها وبها توفي، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله...".

يبدو من خلال وصف البكري أنّ مدينة أغادير كانت موجودة قبل دخول الأدارسة إليها، حيث كانت دار مملكة المغراويين الزناتيين حيث استوطنوا المدينة القديمة البيزنطية كما استعملوا الحجارة القديمة في مساكنهم وكذلك بقايا جدران بيت الصلاة، وهذا ما تؤكده الحفريات التي أقيمت بالموقع الأثري بين سنتي (1393هـ/ 1973م) إلى غاية (1400هـ / 1979م).

ومن بين أهم الأمور التي ساعدت مدينة أغادير على التطور وكثرة الأسواق فيها هو وقوعها بين مفترق الطرق، خاصة الطريق الجنوبي القادم من سجلماسة (طريق الذهب)، وهذا ما جعلها مطمع للدويلات الناشئة بالمغرب الإسلامي.

بعد سقوط الدولة الإدريسية على يد الفاطميين سنة (319هـ/931م)، تأثرت المدينة بالصراع السياسي والقبلي الذي كان بالمغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، حيث سعى الأمويون أمراء الأندلس على بسط نفوذهم بالمغرب الإسلامي وقطع الطريق على الفاطميين، في حين أراد هؤلاء توحيد المغرب الإسلامي جغرافيا ومذهبيا، فأدخلوا في هذا الصراع القبائل البربرية خاصة الزناتية الصنهاجية، ودام هذا الصراع إلى غاية ظهور المرابطين على الساحة السياسية.

يبدو أنّ المدينة لم تتسع خارج محيط أغادير إلى غاية الفترة المرابطية، وهذا بسبب الصراع ولا أمن الذي عرفته منطقة المغرب الأوسط عموما ومدينة تلمسان خصوصا، وقد دام ذلك من سنة (219هـ/834م)، وهي

السنة التي تغلب فيها موسى بن أبي العافية على أميرها حسن بن أبي العيش إلى غاية دخول يوسف بن تاشفين إليها سنة (473هـ/1082م)، ويقول في ذلك ابن خلدون: "...ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغرا لملكه ونزل بعساكرة، واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته و هو إسم المحلة باللسان البربري...".

بدخول المرابطون تلمسان توسعت مدينة أغادير نحو الغرب، حيث أسسوا فيها مدينة جديدة أطلق عليها تكرارت أو تجرارت وتعني المحلة أو المعسكر بلسان صنهاجة، وقد ذكر ذلك يحي بن خلدون في كتابه"بغية الرواد، وأطلق عليها ابن مرزوق بالبلد العليا، وذكرت باسم تلمسان الحديثة عند عبد الله التنسي، فقد أراد يوسف بن تاشفين أن يجعل مدينة تلمسان قطبا هاما من أقطاب الدولة المرابطية، فأسس المسجد الكبير وسورا جديدا يضم المدينة القديمة أغادير والمدينة الجديدة تكرارت، وفتح فيه خمسة أبواب، أربعة أبواب جديدة وأبقى باب العقبة، وبالتالي أصبحت أبواب تلمسان كالتالي: باب الجياد في الناحية الجنوبية، وباب العقبة في الناحية الشرقية وباب الجلوس وباب القرمدين في الناحية الشمالية، وباب كشوط في الناحية الغربية، وقدم لنا ياقوت الحموي وصفا هام حيث يقول: "...هما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تافرزت (كذا) (تاكرارت) فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أقادير يسكنها الرعية..."، وما يمكننا أن نستنتج من نص ياقوت الحموي أن مدينة أغادير تحولت في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى حي من أحياء المدينة الجديدة.

أنشأ السكان والوافدين إليها في هذه الفترة دورا جديدة في مدينة تكرارت، وهذا ما أشار إليه ابن مرزوق عند تطرقه إلى هجرة المرازق الأوائل إلى تلمسان عند حصار المرابطين لها. وفي غياب النصوص التاريخية التي تؤكد ذلك أتساءل هل مسجد أغادير تحول إلى مسجد لحي أغادير في حين أصبح المسجد المرابطي هو المسجد الجامع لمدينة تلمسان؟

وحول هذا المسجد سوف تبنى الدور والمرافق الاجتماعية المرتبطة بتوسع المدينة، وفي هذه الفترة بدأت التأثيرات الأندلسية تبرز واضحة المعالم على العمارة الإسلامية بالمغرب الإسلامي، وتأكدت الصلة بين الأندلس والمغرب الأوسط، وتدعمت العلاقات بين القطرين، وقد استفاد المغرب الأوسط كثيرا من الناحية الحضارية

والعلمية، إذ الأندلس كانت تزخر بالعلم والعلماء، ثم إنّ هجمات النصارى على أراضي المسلمين التي ازدادت خطورة بعد سقوط الدولة الأموية بقرطبة، وتشتت السلطة السياسية أيام ملوك الطوائف، قد أدت إلى هجرة كثير من علماء الأندلس إلى مختلف أقطار المغرب، فكان لذلك أثر كبير وملحوظ في تطور الحياة الفكرية والعمرانية بها.

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين، خلفه ابنه علي بن يوسف، وفي عهده تعمق الأثر الأندلسي في الفنون المغربية مثلما يتضح ذلك في أعماله بجامع تلمسان، وجامع القرويين بفا، وذلك الأمر يبدوا طبيعيا فعلي بن يوسف كان أندلسيا أكثر منه مغربيا، حيث نشأ بالأندلس، وقضى معظم حياته فيها في أيام أبيه، وكانت أمه أندلسية فلا جرم أنّ يكون مرهف الإحساس، محبا للفن، ويشهد على ذلك رقة أعماله، وفخامة الزينة التي ظهرت عليها آثاره في جامع تلمسان، حيث قام بتوسعة المسجد الجامع المرابطي، وتزيين بلاطته الوسطى ومحرابه. وفي عهد ابنه تدهورت الأوضاع السياسة بسبب ظهور الموحدين، حيث سعى تاشفين بن علي على الحفاظ على دولته، ولكنه توفي بوهران بعد حروب ضارية مع الموحدين سنة (541هـ/1146م).

في الفترة الموحدية تحول المغرب الأوسط إلى ساحة لصراع سياسي وعسكري بين القبائل البربرية والقبائل العربية، بالإضافة إلى ظهور بنو غانية وصراعهم العسكري مع الدولة الموحدية، ومع هذا كله اعتنى الموحدون بمدينة تلمسان كثيرا، وجعلوها مدينة محصنة تستعصي على كل طارق، واتسعت خطتها وتجهزت لتكون عاصمة للزيانيين والمغرب الأوسط، ولما كان الأمن من شروط التطور والتحضر وتوسع خطط المدينة وهجرة العلماء والصناع إليها عمل عبد المؤمن بن علي على المآخات بين الموحدين وحي بني عبد الواد، ويصف لنا عبد الرحمن بن خلدون الأهمية التي أعطاها الموحدون لمدينة تلمسان بقوله: "...ولما غلب عبد المؤمن لمتونة، وقتل تاشفين بن علي بوهران خرّبها وخرّب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها وذلك أعوام من المائة السادسة (الصحيح المائة الخامسة). ثم راجع الرأي فيها، وندب الناس لعمرانها، وجمع الأيدي على رمّ ما تثلّم من أسوارها...وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها، والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور، وكان من أعظمهم اهتماما بذلك وأوسعهم فيه نظرا السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة

ست وخمسين (الصحيح سنة 566هـ/1170م)...فشيد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها...ولما كان أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين (581هـ/1185م)...وتخطوا مدينة الجزائر...تلافى السيد أبو الحسن أمره بإمعان النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها، وسد فروجها، وأعماق الحفائر نطاقا عليها، حتى صيرها أمنع معاقل المغرب، وأحسن أمصاره....ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتسع، والصروح بها بالآجر والقرميد تعالى و تشاد..."

ويفسر غياب الشواهد الأثرية التي ترجع للفترة الموحدية بمدينة تلمسان وبالمغرب الأوسط عامة إلى الفتنة التي أحدثها بنو غانية بالمغرب الإسلامي، حيث هدموا و غربوا جل مدن المغرب الأوسط، ويقول ابن خلدون في ذلك: "...و كان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل تاهرت وغيرها...وتخطف الناس من السابلة وتخريب العمران ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين مثل قصر عجيسة...ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة، فلم تبصر بها نار ولا لفحت بها لنافخ ضرمة، ولا صرخت لها آخر الدهر ديكة...".

ولما نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية، ووصفها السلطان يوسف الأول أمير غرناطة في رسالة أرسلها إلى أبي عنان المريني عند دخوله إلى تلمسان والمؤرخة في ربيع الأول من سنة 752هـ/ أول ماي سنة 1351م بقوله: " فتح تلمسان وما أدراك ما تلمسان ؟ قاعدة الملك ووساطة السلك وقلادة النحر، وحاضرة البر والبحر، أسندت إلى الليل ظهرا، وأفصحت بالفجر جهرا، وأصبحت للغرب بابا، ولركاب الحج ركابا، ولسهام الآمال هدفا ولدور العلماء والصالحين صدفا. حسناء تسبي العقول بين التقنع والسفور... وتبججت بوفور العمارة ودار الجباية...".

كما اتسعت المدينة خارج أسوارها وتشكلت مجموعة من التجمعات السكانية عبارة عن أرباض خاصة حي العباد الذي كان مقصدا للعلماء وطلبة العلم، وهذا راجعا أساسا لأمرين هامين، أولهما وجود ضريح العالم الرباني أبو مدين شعيب، والمدرسة التي شيدها أبو الحسن المريني.

ويصفها حسن الوزان في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد وصفا دقيقا واسعا مشتملا على جميع المظاهر الحضارية لذلك قمت بإفراده كاملا: "...تلمسان مدينة كبيرة وهي عاصمة المملكة.....وكل ما يقال أنها كانت صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول، وخصوصا بعد طرد جنود المنصور بن أبي عامر من المنطقة وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد أبي تاشفين، وبلغت حقا درجة عالية من الازدهار لكن تلمسان تضررت كثيرا من جراء الحصار المضروب عليها من طرف أبي يعقوب يوسف ثاني ملوك بني مرين الذي بنى مدينة أخرى شرق مدينة تلمسان ودام الحصار سبعة سنوات واستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل روجيو من القمح ثلاثين مثقالا، وسكورزو من الملح ثلاثة مثاقيل، ورطل لحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه المجاعة واشتكوا إلى الملك...وبعد مرور أربعين عاما جاء أبو الحسن رابع الملوك المرينيين بمدينة فاس فشيد مدينة على ميلين غربي تلمسان وحاصر تلمسان بجيش كثير.....ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثر سكان تلمسان من جديد، حتى بلغ عدد دورهم المسكونة ثلاثة عشر ألف دار. وجميع الصنائع والتجارات بتلمسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة ....لكن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس، وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة ... لها أئمة وخطباء وخمسة مدارس حسنة جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس، وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس وفيها فنادق نمط الإفريقي، منها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية، وحارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود.....وبالمدينة عدة سقايات، لكن العيون توجد خارج المدينة، بحيث إن العدو يمكنه أن يقطع الماء عنها بدون صعوبة، والأسوار في غاية الارتفاع والقوة فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاريعها مصفحة بالحديد، وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون وحراس ومكاسون والقصر الملكي واقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة، ويضم قصورا أخرى صغيرة ببساتينها وساقياتها، وكلها مبنية بكامل العناية و بأسلوب فني رائع، للقصر الملكي بابان أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب الجبل المدينة حيث يقيم رئيس الحرس، وفي خارج تلمسان ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدنيون بسكناها في الصيف، حيث الكروم المغروسة الممتازة تنتج أعنابا من كل نوع....ولنرجع إلى المدينة،

حيث يوجد بها قضاة ومحامون وعدد من العدول يتدخلون في الدعاوي، وكثير من الطلبة و الأساتذة في مختلف المواد سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتتكلف المدارس الخمسة بمعاشهم بكيفية منتظمة.

وينقسم أهل تلمسان إلى أربع طبقات: الصناع والتجار والطلبة والجنود، فالتجار أناس منصفون مخلصون جدا و أمناء في تجارتهم يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه...والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة ويحبون التمتع بالحياة، أما الجنود فكلهم ممتازون يتقاضون أجرة ملائمة إلى غاية إلى حد أن أقلهم رتبة ينال شهريا ثلاثة مثاقيل بسكتهم... وهذه أجرة الرجل وللفرس كأن كل جندي إفريقي مفروض أن يكون فارسا محاربا، والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بائسة في مدارسهم لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما...."